توظيف الفضاءات السكنية الجاهزة بين التصورات والممارسات حالة مدينة وهران

نورية سوالمية،
جامعة معسكر.

تمهيد

تعتبر علاقة الإنسان بالمجال أو الفضاء المعاش من الإشكاليات الأساسية التي شغلت الباحثين في مختلف العلوم، بما فيها علم الاجتماع والأنثروبولوجية. وباعتبار المسكن شكلا فضائيا وهندسيا متميزا، فإنّه حسب تعريف باشلار "زاويتنا وركننا من العالم وهو عالمنا الأول وفضائنا"(BACHELARD,G.1981 :25). وفي هذا المقام وجب تحديد العلاقة التي تنسج بين الساكن وفضائه السكني، فلا شك أنها تترجم لنّا مدى ارتباط هذا الساكن بهذا الفضاء ومدى تأقلمه معه، كما تترجم تصوراته وتمثلاته، فالفضاء لا ينظم أبدا بصورة عفوية فهو مهيكل حسب هوية الساكن.

وعليه نحاول من خلال هذه الدراسة فهم الفضاء السكني الجاهز، وكيف يمكن للساكن أن يتفاعل معه لتنظيمه وإعادة تنظيمه ليتناسب مع التصورات والتمثلات التي يحملها، ولكي يتجاوز جبرية المسكن غير المختار، يحاول الساكن القيام بعدة تحويلات على فضائه السكني. هذه التحويلات والتدخلات التي تتم داخل المسكن تشرح لنا بوضوح مدى العلاقة الموجودة بين الساكن ومسكنه.

ومن هنا نحاول التساؤل عن الأسباب التي تؤدي بالساكن إلى إحداث تغيير في بنية مسكنه وعن الأساس والمعيار الذي يتحكم في تنظيم وإعادة تنظيم المسكن؟. وذلك إذا اعتبرنا أنّ ممارسات الساكن داخل مسكنه تتم حسب تصورات الساكن ووضعيته، وكذلك حسب خصائص الفضاءات السكنية وما تتميز بها من حيث الطبيعة القانونية لإشغالها، إضافة إلى حجمها وحالتها ومدى توفرها على التجهيزات الضرورية. لأنّ الفضاء يؤثر على ساكنيه كما يتأثر بهم.

وكميدان للدراسة تم انتقاء الفضاءات السكنية الحضرية (الشقق بالعمارات) الموروثة من الفترة الاستعمارية، مركزين على المساكن الوظيفية لما تعرفه من تدهور واضح مورفولوجيا ووظيفيا.

1- الفضاءات السكنية

يعتبر الفضاء إنتاجا جماعيا وجزء من الحياة الاجتماعية وهو يتجلى " كنموذج إبراز أو تعبير عن المجتمع... والعلاقة بالفضاء تحافظ على خصوصية الهويات" (BONTE,P-IZARD,M.1991 :235). والفضاء السكني حسب ما يراه عبد القادر القصير هو "البناء الذي يأوي إليه الإنسان ويشتمل هذا البناء على الضروريات، التسهيلات، التجهيزات، الأدوات والأجهزة التي يحتاجها أو يرغب فيها الفرد لضمان تحقيق الصحة الطبيعية والعقلية والسعادة الاجتماعية له ولأسرته"(القصير،ع .1999: 169).

إذن الفضاء السكني يعتبر من الأولويات والحاجات الأساسية للأفراد، فهو ليس بالمجال الذي يحمي الإنسان من أخطار الطبيعة فقط، لأنّه يوفر لساكنيه الراحة النفسية والجسدية، من خلاله يشعر الفرد بإنسانيته وكرامته. بل نعتبره المكان الوحيد الذي يحقق فيه الساكن استقلاليته وحرياته الشخصية بدون قيود، ويجسد فيه هويته وتصوراته، وبطبيعة الحال ليس وحدة سكنية جامدة فهو في حالة ديناميكية يتغير حسب احتياجات ساكنيه، ولا يوصف على أنّه حيطان صماء. وبالتالي فكلّ ركن فيه يحمل تصورات معينة مما يفسر أنّ الفضاءات السكنية لا تنظم بنفس الطريقة.

إذن فالفضاء السكني شكل تنظيمي توظيفي من طرف السكان كنتيجة لتمثلاتهم، فهو عبارة عن مؤسسة مشكلة من مجموعة من التصورات ومخيال لا بنية وشكل فقط.

2- التصورات الاجتماعية

التصورات الاجتماعية ظواهر معقدة فعالة في الحياة الاجتماعية تتواجد داخل الواقع الاجتماعي بصورة دائمة. وهي"مجموعة منظمة من الآراء، المعتقدات، المعلومات والمعارف"(ABRIC,J.1989:203) وتتكون "انطلاقا من الحوار أو برنامج تحركي كالسفر التجارة وغيرها"(JACOB,C.1987:213) . بمعنى أنّ الأفراد يتناقلون التصورات والآراء من خلال الحوار والحركة والتنقلات. ونثمن ذلك بقول موسكوفيسي عندما اعتبر التصورات الاجتماعية" كيانات حقيقية تتحرك وتتلاقى كما أنّها تتبلور بدون انقطاع لا تتوقف بواسطة الكلام الحركة والتعارف في حياتنا اليومية"(HEWSTONE,M.1989 :273)

إذن فالتصورات في تغير مستمر يكتسبها الفرد خلال حياته اليومية التي تنتج نماذج جديدة بالتخلي عن النماذج القديمة، وهذا ما سماه فلامو "حرق التصورات وظهور تصورات جديدة بدون قطيعة مع الماضي في كثير من الأحيان" (FLAMENT,C.1989:231)مؤكدا على التغيير البنيوي للتصورات، وعلى هذا الأساس هي في حركية دائمة يلغى بعضها ويضاف البعض الأخر، وتبنى باستمرار وداخل صيرورة عابرة عن طريق التفاعل بين الأفراد والجماعات.

يمكن الأخذ بالاعتبار أنّ الجماعة الاجتماعية تأخذ تصورات جديدة داخل محيطها الاجتماعي والسكني على وجه الخصوص، الذي يتكون من عدد كبير من الجماعات والأفراد، لكل منهم تصورات وتمثلات خاصة به، وكل عضو في الجماعة يحمل الملايين من التصورات منها سريعة الزوال، ومنها ما يبقى في الذاكرة إلى أبعد مدى وهي تكوّن معرفة الفرد. فللوسط الاجتماعي تأثير كبير في بناء تصورات وتمثلات الساكن وبالتالي في ممارسات هذا الأخير داخل فضائه السكني. كما أنّ وضعية الساكن السوسيوثقافية أساس في بلورة تصوراته لمسكنه.

ونظرا لأهمية المكان الذي استقرت به الأسر قبل قدومها إلى الحي،كان من الضروري التطرق إلى مميزات الإقامة السابقة، لأنّها تعكس حالة هذه الأسر والحيز السكني الذي شغلته قبل تنقلها إلى المسكن الجديد. وقد اتضح من خلال

المعاينة الميدانة أنّ معظم أسر العينة كانت تسكن مع أهل الزوج إلى أن استفادت من المسكن الحالي بسبب تغيير أرباب الأسر مكان عملهم. كما تبين لنا أنّ أغلب الإقامات السابقة عبارة عن مساكن تقليدية (حوش)، لم يتعوذ أصحابها على شقق بالعمارات.

وتعتبر مدة إقامة الأسر بالفضاء السكني الحالي متغير هام لتوضيح علاقة الساكن بفضائه السكني ومدى اندماجه في وسط الحي عموما، وعليه وجدنا أنّ معظم الأسر تتجاوز مدة إقامتهم ست سنوات، ويمكن اعتبارها مدة كافية لكي يتكيف السكان مع فضاءاتهم السكنية الجاهزة، الأمر الذي يجعلهم يحاولون باستمرار تحسينها بما يتوافق وتصوراتهم ورغباتهم واحتياجاتهم.

ومن جهة أخرى تختلف تصورات الأفراد حسب المستوى الدراسي مما ينعكس على تصرفاتهم وممارساتهم داخل الفضاء السكني وحتى في طريقة تجهيزه. فللمستوى التعليمي لأرباب الأسر تأثير على بنيتهم المهنية والاجتماعية فينعكس على تحسين حالة المسكن أولا، ومن تم صورة الحي الذي ينتمون إليه ثانيا. وقد اتضح أنّ أغلب الآباء لهم مستوى تعليمي يفوق المتوسط ولا توجد في أوساطهم الأمية، عكس ربات البيت التي تبرز ظاهرة الأمية لديهن بوضوح، مستواهن التعليمي محدود

لقد كان لحجم الأسرة أثر بالغ على توزيع الغرف، فالفضاءات السكنية التي زرناها تضم أسر نووية أي زوج وزوجة وأطفال يتراوح عدد أفراد الأسرة الواحدة مابين 3 إلى7 أفراد، فكما هو معروف أنّ البناءات من النمط الجماعي لا يشغله أكثر من أسرة في الظروف العادية لضيقه، إضافة إلى أنّ السكان قادمون من أماكن مختلفة من الوطن قصد العمل فلا ينتقل معهم أفراد عائلاتهم الكبيرة إلا نادرا.

3- خصائص الفضاءات السكنية

إنّ الفضاء السكني وما يحمله من خصائص ومميزات كملكيته وحالته ومدى توفره على التجهيزات الضرورية يؤثر على ممارسات الساكن داخله. لذلك خصصنا دراستنا للمساكن الوظيفية وهي تابعة إلى قطاع حكومي، يقيم فيها السكان بشكل مجاني دون دفع الإيجار وبدون عقد ملكية، يملكون فقط "بطاقة إسناد مسكن"، هذه المساكن ذات ملكية عمومية تتعدم بها الملكية الخاصة. وبما أنّ هناك اختلاف أكيد بين مسكن نملكه وآخر نقطنه لوقت محدد، فإما يسعى الساكن إلى تحسين مسكنه وتغيير بنيته حسب تمثلاته وآماله، أو يتركه على حاله بدون أي تعديلات، ويمكن تقسيم الفضاءات السكنية التي تم زيارتها من حيث حالتها إلى رديئة، متوسطة وجيدة.

فالمساكن الرديئة هي تلك التي تتواجد في حالة تتطلب التجديد فلا تؤدي وظيفتها السكنية على أحسن وجه، ويلاحظ بها تشقق الجدران وانهيار السقوف خاصة بالحمام والمطبخ وكذلك عند مدخل الشقة، والسبب في ذلك أنّ دخل معظم أصحاب هذه المساكن لا يلبي حتى حاجاتهم اليومية الأساسية مما يؤثر على حالة البنيان وتعرضها للهشاشة بسبب الإهمال، وتظهر لنا هذه الظاهرة جليا في الصورتين رقم (01)، (02).

الصورة رقم (01) **الصورة رقم (02)**

إنّ عدم اهتمام السكان بفضاءاتهم السكنية يرجعونه إلى عدم امتلاكهم له، فعلى حد تعبيراتهم هو مؤقت وليس دائم مهما طالت مدة إقامتهم به سيأتي يوما ويغادرونه، فعدم ملكية المسكن لا تحفز الساكن على تحسين المسكن وتعديل تجهيزاته الداخلية. أما عن المساكن المتوسطة والجيدة جلهم من أصحاب الرتب المهنية المرتفعة لهم مداخيل يرونها مناسبة مما يساعدهم على تحسين مساكنهم.

فبالرغم من وجود من لا يهتم بمسكنه ويتركه على حاله دون أية تحسينات، فإنّ بعض الأسر تحاول تعديل مسكنها، فقد جاء على لسان سيدة من أفراد عينتنا "دير النية في سكنتك تعطيك ماخير منها" ليبقى أملها وأمل كل أسرة بهذه المساكن الوظيفية في تملك مسكن خاص بحثا عن الاستقرار.

ومن هنّا يجدر بنا التطرق إلى أهم الأسباب التي أثارت اختلال البنايات، أولها الرطوبة التي تعتبر أهم سبب فتهطل الأمطار الغزيرة والسريعة تؤدي إلى تسرب المياه إلى أساس البناية، وينتج عن الإسراف في استعمال المياه المنزلي تسرب المياه إلى الجدران والسقوف ليحدث تعفن إلى درجة انهيارها على مستوى الفضاءات السكنية.

والسبب الثاني لاختلال البناية قلة الصيانة، فالسكان غير مهتمين بمساكنهم من حيث الصيانة خاصة الأسر ذات المستوى المادي المحدود كما سبق الذكر. ويستعمل بعض السكان مدخل الشقة لغسل الثياب والأفرشة لأنهم لا يملكون شرفة، ولأنّ هذا المدخل واسع كون الحمام فضاء ضيق لا يسمح بغسل

الأفرشة، الأمر الذي يسبب تسرب المياه إلى المساكن السفلية عبر الجدران مما يساعد على هشاشة العمارة وتعفن جدران وسقوف الفضاءات السكنية.

4- تنظيم الفضاء السكني

تكتسي مسألة تنظيم المسكن وترتيبه وتأثيثه أهمية كبرى، لأنّ الممارسات داخل الفضاء السكني تترجم النماذج الثقافية، فتقسيم الفضاء السكني بين مجال للرجال وآخر للنساء وللأطفال، مجال مخصص للنّوم وآخر للجلوس، فضاء مكشوف واخر مستور.... ناتج عن تمثلات الساكن نفسه.

ولقد توصل إبراهيم بن يوسف في دراسته للمجتمع المزابي (cf. BENYOUCEF,B.1986)إلى أنّ تهيئة المسكن مرتبط بالحرمة، وعلى تقسيم الفضاء السكني بين مجال خاص بالمرأة يتضمن قاعة لاستقبال النساء فقط وتسمى(Tisefri)تيسفري، ومجال مخصص للرجال يسمى (Al'hujrat)الحجرات، يضم عددا من الغرف وقاعة لاستقبال الرجال الأجانب، وقد بنيت هذه القاعة في مكان منعزل عن المسكن تتميز بالاستقلالية عن باقي الغرف لها باب خارجي يطل مباشرة عن الشارع.

وعلى هذا النهج ترى بوشانين أنّ الفضاء السكني ينقسم إلى مجالين الأول مرئي (visible) يضم قاعة الضيوف أو"الصالة" أو كما يسمى عند البعض "بيت الضياف"، وهو مخصص لضيوف الأسرة كالأهل، الأحباب، الأصدقاء والجيران. أما المجال الثاني غير مرئي (non visible) وهو مخصص للمرأة تتحرك فيه بكل حرية ويمنع على الرجال الأجانب دخوله احتراما له ولمكانة المرأة، وللحفاظ على حرمة المسكن ويضم هذا المجال المطبخ وغرف النّوم (cf. BOUCHANINE, N.F.1997).

فهذا التقسيم بين فضاء للاستقبال وآخر لأفراد الأسرة ضروري وموجود يؤكد الحفاظ على الحميمية في الحياة العائلية، ومنه يمكن تقسيم الفضاء السكني إلى فضاء اجتماعي وفضاء حميمي.

4- 1 الفضاء الاجتماعي

نقصد بالفضاء الجتماعي مكان التقاء أفراد الأسرة مع أفراد من خارج الأسرة كالأصدقاء والأقارب والجيران... لذلك له تلك الصبغة الاجتماعية و يتمثل في غرفة استقبال الضيوف، التي تعد الأكثر أناقة مقارنة بباقي الغرف من حيث مظهرها؛ حيث يحرص الساكن على أن تكون مرتبة دائما ونظيفة كي تقدم صورة حسنة عن أصحاب المسكن.

وتحظى بعناية الساكنين بها من حيث النظافة ونوعية الأثاث التي تتميز بالجودة والفخامة، فيذهب البعض إلى غلق باب الصالة بالمفتاح لتكون بعيدة عن الممارسات اليومية وحتى تبقى نظيفة جاهزة لاستقبال الضيوف، ونجد هذه الظاهرة لدى الأسر التي لا تعاني ضيق المسكن أما عن الذين يعانون من ضيقه تتعدد استعمالهم للصالة، فهي لاستقبال الضيوف من جهة وغرفة لتجمع وجلوس أفراد الأسرة نهارا لتصبح ليلا غرفة نوم الأطفال، فيغدو هذا المجال متعدد الوظائف.

ومن بين الأثاث التي نجدها داخل معظم غرف الاستقبال ما يعرف ب Bibliothèque وتستعمل لعرض الأواني الفخارية والمزهريات والزهور الاصطناعية وغيرها من أدوات الزينة وقد نجد بعض الكتب بها، كما تتوفر هذه الغرف على الأرائك من النّوع الجيد والطاولات المزخرفة. والغرض من تهيئة الصالة بهذه الطريقة هو إرضاء الزائر وإعطائه انطباعا حسنا على المنزل وأهله.

ولأهمية فضاء الاستقبال كان لابد لنا من التطرق إلى ما يفضله السكان حول تموضعه، باعتبار أنّ الأصل الجغرافي متغير هام في تحديد واختيار موقع قاعة الضيوف، فأسر العينة أكثريتهم من أصل حضري يفضلون "الصالة" في مقدمة المسكن احتراما للفضاء الحميمي للأسرة، وحتى لا يسمح للزائر التجول في المسكن بمعنى "من الباب إلى الصالة مباشرة". أما من يفضلون "الصالة" منعزلة عن المسكن جلهم من أصل ريفي غير متعودين السكن بالشقق.

ومن جهة أخرى لمسنا أنّ أغلب السكان الذين يملكون صالة مقابلة للباب الخارجي، أو صالات بمدخل واسع غير راضيين على موقعها لأنّها تعيق تحركات المرأة داخل مسكنها لهذا نجدهم أقاموا بابا عند مدخل الصالة أو وضعوا ستارا لحجب المرأة عن رؤية الضيوف لها.

فتحديد موقع قاعة الضيوف واختياره يعبر أساسا لدى أفراد العينة على أنّه مكانا مستورا حفاظا على مكانة المرأة من خلال مفهوم حرمة الفضاء السكني المجسدة لدى السكان.

4- 2 الفضاء الحميمي

يتميز تجهيز الفضاء الحميمي في أغلب الأحيان بالبساطة ومخصص لأفراد الأسرة لا يسمح للغرباء عن المسكن دخوله، يتكون أولا من غرف نوم الزوجين الذي يعتبر أكثر المجالات حميمية، مقدس من حيث حرمته واختيار تموضع هذه الغرفة يكون دائما بعيدا عن مدخل المسكن وعن أنظار الأجانب (الضيوف)، وتبقى هذه الغرفة مغلقة لدى معظم الأسر التي زرناها، وتتضح هذه الفكرة في المخططات رقم (01)، (02)، (03)و(04).

فباعتبار نوم الزوجين معا قرارا دينيا في الشرع الإسلامي، فهو يحكم أيضا الفصل بين الذكور والإناث في النّوم، ولتحقيق ذلك تقوم بعض الأسر والتي تعاني ضيقا في المسكن باستعمال"الصالة" لنّوم أولادهم الذكور خاصة، أما الأطفال الذين لا يتجاوز عمرهم الخمس سنوات ينامون في غرفة أولياءهم.

وفيما يخص غرفة الجلوس أو كما تعرف عند البعض "بيت القعاد" تختار دائما عند مدخل الشقة وهي تستعمل أيضا لنّوم الأطفال ولمشاهدة التلفاز، وهذا حفاظا على حميمية غرفة نوم الزوجين و"الصالة" نظيفة، وعادة ما تتكون هذه الغرفة من أفرشة بسيطة وخزانة عادية تحوي التلفاز والراديو لدى أغلب الأسر فهي تضمن الالتقاء الدائم بأفراد الأسرة لتعدد استعمالاتها.

أما عن المطبخ كفضاء الحميمي خاص بالمرأة، لاحظنا أنّه مجال غير مرتب بالمقارنة مع المجالات الأخرى بالشقة لما فيه من حركية دائمة؛ إذ تقام بداخله معظم النشاطات المنزلية فتستعمله بعض الأسر لنشر الملابس، ويخلو في مجمله من الأشياء

ذات القيمة المادية الرفيعة ومن أدوات الزينة، ويقتصر تجهيزه على أدوات الطبخ وخزانة صغيرة الحجم لحفظ الأطباق وغيرها من مستلزمات الطبخ ومؤونة الأسرة من المواد الغذائية، بالإضافة إلى الثلاجة والمائدة الخشبية بكراسيها.

المخطط رقم (01)

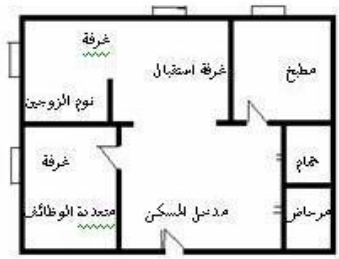

المخطط رقم (02)

هذان النموذجين من الفضاءات السكنية عرفت بعض التعديلات، فإما غلق هذه المجالات المفتوحة عند مدخل غرف الاستقبال وعند مدخل غرف نوم الزوجين بستار (حجاب)، أو إقامة باب خشبي.

المخطط رقم (03)

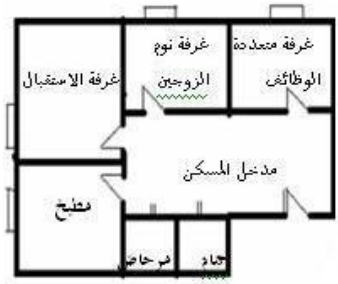

المخطط رقم (04)

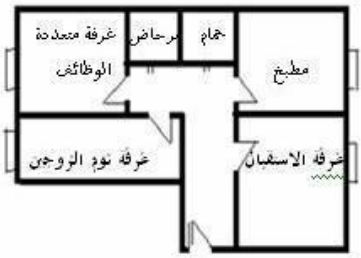

5- إعادة تهيئة الفضاء السكني

تعتبر إعادة تهيئة الفضاءات السكنية القديمة والموروث من الفترة الاستعمارية ضرورة حتمية يلجأ إليها الساكن لتحسين مسكنه وهذا يختلف من أسرة إلى أخرى حسب إمكانيات الساكن المادية، وانطلاقا من تصوراته واحتياجاته وطموحاته، وكذا من أجل التخفيف من حدة ضيق مسكنه. ولقد لمسنا من خلال هذه الدراسة الميدانية نوعين من التدخلات لإعادة تهيئة الفضاء السكني وهما:

5- 1 التعديلات

نقصد بها تلك التدخلات الطفيفة التي مست الفضاء السكني دون تغيير تركيبته وبنيته الداخلية من خلال المساهمة في تحسين حالته بترميمه وصيانته، هذه التعديلات بسيطة تكون على مستوى الشقة بالدرجة الأولى، نذكر منها طلاء

المسكن وذلك من اجل تحسين ما خلفته الرطوبة ولكي يكون صالحة للسكن، إضافة إلى تجديد الأبواب وتحصين النوافذ بالقضبان...

5- 2 التحويلات

تمس التحويلات التركيبة الداخلية للفضاء السكني، فلتركيب الأسرة وحجمها الأثر البالغ في تحويل وتغيير بنية المسكن، فعدم انسجام حجم الأسرة مع حجم مسكنها يؤدي إلى تغيير في هيكلة البيت، الهدف من هذه التحويلات توسيع أو إضافة غرفة حتى على حساب التخلص من التجهيزات المجالية الأخرى كالشرفة والحمام الذي أصبح تجهيزا ثانويا في نظر السكان.

فالذي يحدد تنظيم الفضاء هنا هو عامل ضيق المسكن، ومن الفضاءات التي شهدت تحويلات شاملة والتي تحوي الغرفة الواحدة تظهر في المخطط رقم(05). وهذا بالرغم من اختلاف مستويات الأسر المادية؛ حيث تم تحويل المطبخ إلى غرفة استقبال، وهذا الأخير إلى غرفة نوم، لأنّ المطبخ كان موجود عند مدخل المسكن، وتم الاستغناء عن الحمام الذي حول إلى مطبخ.

المخطط رقم(05):

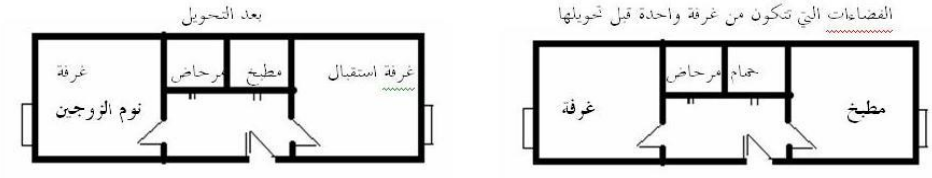

كما أنّ الفضاء السكني الذي يتكون من ثلاث غرف ويحوي الشرفات عرف أيضا تحويلات شاملة في بنيته الداخلية (أنظر المخطط رقم 06)، وهنا ينكشف ذلك الاختلاف في إعادة تنظيم هذا الفضاء الذي يتحكم فيه الجانب المادي للأسرة فكلما ارتفع مستواها الاقتصادي زادت التحويلات للفضاء، أما إذا انخفض هذا المستوى تركت الفضاءات السكنية على حالها بالرغم من أننا نجدمعظم الأسر غير راضية على تركيبة مساكنها الداخلية.

المخطط رقم(06):

والملاحظ من التحويل الأول، أنّ الفضاء وبعدما كان يحوي ثلاث غرف أصبح بخمس غرف بعد تحويل الشرفة إلى مطبخ وهذا الأخير إلى غرفة متعددة الوظائف، فهي غرفة لتناول الوجبات الغذائية واجتماع أفراد الأسرة لمشاهدة التلفاز....وهذا راجع إلى تموقعها بالجانب الأمامي للمطبخ من أجل المحافظة على نظافة باقي الغرف. كما تم أيضا غلق المجال المفتوح داخل غرفة الاستقبال للاستفادة من غرفة إضافية مع استبقاء الشرفة الثانية من أجل التهوية.

أما التحويل الثاني استهدف توسيع غرفة الاستقبال بحذف الشرفة وإضافة نافذة خارجية مع استبقاء باقي الغرف على حالها. ويعبر هذا التغيير في بنية المسكن عن عدم تأقلم تمثلات الساكن وتصوراته مع بنية مسكنه

الجاهز، فقد أكد بونيتي أنّ هذه التغييرات تدل على أزمة ملكية المجال وعدم تكيف الفضاء المشيد مع الفضاء المعاش . (BONITI,M.1994 :95)

مع هذا الاختلاف الموجود بين المهندس المعياري الذي صمم هذه الفضاءات السكنية ذات النمط الأوربي وبين الساكن الجزائري بهويته وتصوراته. نرى أنّ الغرض من التحويلات والتغييرات في بنية الفضاء السكني إنشاء مجال يحمل تمثلات الساكن وتصوراته ليتناسب مع احتياجاته، فأحدثت بعض الأسر تغييرات على مستوى المراحيض إذ استبدلت العلوية بأخرى سفلية لأنها مريحة وسهلة من حيث النظافة. إضافة إلى ذلك أقامت بعض الأسر بابا للصالة وأحدثت تغييرا على حجم النوافذ (تم تصغيرها) بهدف منع نظر الغريب من اختراق وانتهاك حرمة الفضاء، وبحثا عن الأمن يضيف السكان إلى نوافذهم وأبواب مساكنهم شبابيك وقضبان حديدية.

فتغيير في بنية المسكن يكون من أجل الحفاظ على حميمية الأسرة وأمنها، فكما اعتبر شومبار دولو المسكن وجود اجتماعي وثقافي بارز "تعمل المجموعة التي تسكنه على توفير أحسن حماية له من العالم الخارجي فتجعل منه محمية".(CHOMBART DE LAUWE, P.H.1971 :11) ويتضح لنا جليا مدى تأثير حرمة المسكن على تنظيم وإعادة تهيئة الفضاء السكني للحفاظ على مكانة المرأة.

5- 3 مكانة المرأة

ترتكز التنشئة الاجتماعية للفتاة على مجموعة من المفاهيم تشترك وتتداخل، أهمها العيب والحشمة والحرمة، ولكل مفهوم دلالته الاجتماعية، فالأول يدل على الحدود التي يجب على الفتاة احترامها وعليها صيانة حرمة مسكنها، أما الثانية فتتمثل في القيم الأساسية المعبرة عن إتمام التربية ويقصد بها أيضا الحياء، أما الثالثة تشير إلى المقدس والشرف لارتباطه بشرف العائلة.

كما تعني "الدار" المرأة في الثقافة الجزائرية، فيقال"الدار غايبة" أي أنّ الزوجة غائبة، وعليه فإنّ حرمة مسكنه من حرمة زوجته أو ابنته...أي المرأة بصفة عامة، وانتهاك حرمة أحدهما يعد انتهاكا لحرمة الأخر، ولأجل ذلك يصبح للمرأة مكانة كبيرة واستعلائها داخل فضائها السكني كما يصفها رابوبر"يأخذ أشكال مختلفة، ويختلف من منطقة إلى أخرى ففي المنزل الياباني تظهر مكانة المرأة، ويعتبر المطبخ فضائها بدون منازع، أما بالسينيغال يتميز الباب الخارجي للمسكن بسور أو- تحويطة- لإبعاد المرأة عن الأنظار حفاظا على كرامتها، وفي الثقافة الإسلامية يتجسد مفهوم الحرمة في تشكيل المسكن"(RAPOPORT,A. 1972 :91).

إذ أنّ المعماري في الدولة الإسلامية قد جعل المسكن منغلقا على نفسه، خال من كل فتحة إلى الخارج حفاظا للمرأة وصونا لكرامتها، فلا ترى ولا يسمع صوتها من خارج الدار، وبما أنّه قد تم إغلاق منّافذ النور والهواء كان لزاما وجود مجال أخر يسمح بمرور الضوء والهواء، كما يمنح للمرأة حق التمتع بأشعة الشمس، وهو ما يسمى بالحوش إضافة إلى سطح البيت. وقد عبر مصطفى بوتفنوشت عن موقع

المرأة ومكانتها في المجتمع الجزائري التقليدي "بأنها تحفظ وتحجب عن الأنظار" (BOUTFNOUCHET,M.1980 :70)

فالساكن يعمل على إنتاج الحميمية والحرمة لأهله داخل الفضاء السكني فاحترام قيمة العتبة من احترام مكانة المرأة التي يجب أن تحفظ عن أي نظر أجنبي بالرغم من ممارسات المرأة خارج البيت كالتسوق والعمل.

خلاصة

يعتبر الفضاء السكني وحدة معقدة وهو خلاصة عدة عوامل منها القانونية والاقتصادية وغيرها، وكلها تلعب دورا في تحديد علاقة الساكن بمسكنه، فعدم ملكية المسكن يحول دون تهيئة وتغيير البنية الداخلية له، هذا باستثناء الفضاءات الضيقة (التي تتكون في الأصل من غرفة واحدة) ويتحكم في تنظيم وإعادة تنظيم المسكن المستوى المادي للأسرة، فإذا كان محدودا عجزت الأسرة على تلبية متطلباته قصد تحسينه عكس ما نجده عند الأسر ميسورة الحال والتي تعمل على تجديده وتحسينه باستمرار وتغييره حسب احتياجات الأسر.

أما فيما يخص درجة تكيف الأسر مع هذه المساكن الجاهزة فتختلف باختلاف الأسر ذاتها فالتكيف سريع وسهل لدى الأسر الآتية من مناطق حضرية والتي اعتادت السكن بالشقق عكس ما نجده لدى الأسر الآتية من مناطق ريفية؛ حيث يكون تكيفها مع فضائها السكني بطيئا حتى تستطيع التأقلم مع الحياة الحضرية والتعود العيش داخل الشقق.

كما أنّ تصرفات الساكن وممارساته داخل فضائه السكني تؤكد أهمية الحفاظ على حرمة المسكن وصيانة مكانة المرأة داخله بحجبها عن أنظار الغرباء، ويظهر ذلك في الستارات المقامة على النوافذ وبأبواب غرف استقبال الضيوف.

إذن المحيط يفرض نفسه ويساهم في تكوين أنماط معينة من التصورات كشكل من أشكال التكيف وعندما تتكون تلك التصورات تصبح تساهم بدورها في تغيير المحيط والفضاء المعاش، فالفرد هو الذي يصنع فضائه بما يتناسب وتصوراته واحتياجاته الخاصة، كما يحاول من جهة أخرى التكيف مع فضائه.

المراجع

- القصير، ع. (1999). الأسرة المتغيرة في مجتمع المدينة العربية (دراسة ميدانية في علم الاجتماع الحضري والأسري)، دار النهضة العربية: بيروت.

ABRIC,J. (1989). "L'étude expérimentale des représentations sociales". Dans l'ouvrage (JODELET, D). Les représentations sociales. Paris : Puf. P.P.(203-223).

BACHELARD, G. (1981).La production de l'espace. Paris :Puf.

BENYOUCEF, B.(1986). Le M'Zab : Les pratiques de l'espace. Alger : Ed urbaine.

BONETTI, M. (1994). Habiter : Le bricolage imaginaire de l'espace. Paris : Descellée de Brouwer.

BONTE, P-IZARD,M. (1991).Dictionnaire de l'ethnologie et de l'anthropologie. Paris : Puf.

BOUCHANINE, F.N. (1997). Habiter la ville marocaine. Paris : L 'Harmattan.

BOUTEFNOUCHET, M(1980). La famille Algérienne (Evolution et caractéristiques récentes). Alger : société national de diffusion.

CHOMBART DE LAUWE, P.H. (1971). Pour une sociologie des aspirations. Paris : Médiations.

FLAMENT,C. (1989). "Structure et dynamique des représentations sociales". Dans l'ouvrage (JODELET, D). Les représentations sociales. Paris : Puf .P.P. (224-239).

HEWSTONE, M. (1989). " représentation sociale et causalité.". Dans l'ouvrage (JODELET, D). Les représentations sociales. Paris : Puf. P.P. (.272-294).

JACOB, C. (1987). "La représentation de l'espace :projet pour une réflexion théorique".Espace des autres lectures anthropologiques d'architecture. Paris : Les éditions de la villette.

RAPOPORT, A. (1972).Pour une anthropologie de la maison. Paris : Bordas.